و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

إنْ تنصرُوا اللهَ ينصرْكُم

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٥/ ٤/ ١٤٤٥ هـ

"إنْ تنصرُوا اللهَ ينصرْكُم"

بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم

إنّ الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ مُحمّدًا عبده ورسوله.

أمّا بعد..

أربعةٌ وعشرون يومًا -إلى الآن- مرّت على العدوان الإسرائيلي الغاشم على قطّاع غزّة، أربعةٌ وعشرون يومًا من قوافل الشّهداء، ومِن حمّام الدّم، أربعةٌ وعشرون يومًا والشّعب المُسلِم -هناك- مُحاصَرٌ؛ لا طعامَ، ولا ماءَ، ولا دواءَ، فقد قطعوا عنهم كلَّ سُبُلِ العيش.

إنّما يعيشُه المسلمون في فلسطين ليس جديدًا، وإنّما هي مأساةٌ عمُرُها خمسٌ وسبعون سنةً، وكثيرٌ من شعوبنا الإسلاميّة عانتْ بالمِثل، وكُلّنا رأى المذابحَ التي وقعت في سوريّة، من بدايات الأحداث ولم تزل إلى يومنا هذا،بَيْدَ أنّ الوحشيّةَ هذه المرّة مُستعِرَةٌ، وتبدو وكأنّها لحظةٌ فاصلةٌ في مفاصل التّاريخ.

إن ما يَهمّنا مِن هذه الأحداث ليس النّقاش والتّحليلات، ولا من يفوزُ ومن يخسر، فهذا كلُّه في عِلم الله عزّ وجلّ، بل الأهم في ذلك أنْ تنظرَ إلى ما يجري وَفْقَ ما يريده الله جلّ جلاله، لا كما تريده أنت، وأنْ تقيسَه بميزان السّماء، لا بميزان الأرض.

ولعلّ كثيرٌ منّا يتساءل: متى نصرُ الله؟

سنرجعُ -للإجابة- إلى القرآن العظيم، وننظر من منظور الوحي، كي نستقرئَ الأحداث على نحوٍ سليمٍ:

يقولُ الله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(محمّد: ٧).

هذا وعدٌ جازمٌ قطعيٌّ من الله العظيم، وأينما تُقلّبْ عينيك في كتاب الله العزيز تجدْ مثلَه، يقول عزّ وجلّ:﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾(المجادلة: ٢).

ويقول جلّ جلاله أيضًا: ﴿ولقد سَبقت كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلمُرسَلِينَ(172)إِنَّهُم لَهُمُ ٱلمَنصُورُونَ﴾(الصافّات: ١٧١-١٧٢).

ويقول جلّ جلاله:﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا وَيَومَ يَقُومُ ٱلأَشهَـٰدُ﴾ (غافر: ٥١).

فاللّه عزّ وجلّ ناصرٌ عبادَه، وناصرٌ أتباعَ رسله، وإنّ أتباعَ محمّدٍﷺ موعودون بنصرِ اللّه العزيز، لكن؛

هل مِنْ شروطٍ؟ وهل مِنْ حكمةٍ في هذا التأخير؟

دعونا نرجعْ -في توضيح ذلك- إلى سيرة المُصطَفى محمّدٍ ﷺ، فقد ضحّى وصحابتُه في سبيل نصرة دين اللّه تعالى بخمسةِ أشياءَ مِن أثمنِ ما يمتلكه الإنسان:

1- **النّفْس**: فكان الصّحابة -رضوان اللّه عنهم- في غزوة بدرٍ يقولون للنّبيّﷺ بعدما شاورَهم بالهجوم على قريشٍ: **"امضِ يا رسول اللّه! فنحن معك"**، وأثناء القتال كانوا يتسابقون إلى الموت، فكانت أرواحهُم أرخصَ ما لديهم.
وصهيب الرّومي -رضي اللّه عنه- واحدٌ منهم إذ أعطى كلّ أمواله للقُرَشيين الذين حاصروه ومنعوه من الهجرة إلى رسول اللّهﷺ في سبيل اللّحاق به، وعندما رأى النّبيّﷺصُهيبًا وقد وصل المدينةَ المنوّرة قال: "أبا يحيى! ربِحَ البيعُ ربِحَ البيعُ ربِحَ البيعُ"[1].[وأبو يحيى كنيتُه التي كنّاه بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم].

2- **المال**: فقد كان الأنصار يتقاسمون أموالَهم وممتلكاتِهم ومزارعَهم مع المُهاجرين، فكانوا يُؤثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصةٌ.

3- **الوقتُ والجُهد**: فقد كانوا يُمضون أوقاتِهم في العبادة، وفي الجهاد، ويُسخِّرون لذلك كلَّ طاقاتِهم الجسديّة والفكريّة.
4- **الشّهواتُ والملذّات**: إذِ ابتعدَوا عن شربِ الخمر الذي كان عُرفًا من أعرافِ الحياةِ الاجتماعية آنذاك، وأقبلوا على رضى اللّه تعالى.
5- **الدّيار**: ذلك أنّهم هاجروا إلى يثربَ في سبيل إقامةِ الحقِّ ونُصرة دين اللّه عزّ وجلّ، على الرّغم من شدّةِ حبِّهم وتعلُّقِهم بمكّة.

وجاءهم نصرُ اللّه تعالى بعد خمسَ عشْرةَ سنةً، أي في غزوة بدرٍ، ولم يتوقّف الأمرُ هنا، فالنّصرُ المتعلّق بالفتوحات جاء بعد سنينَ طويلةٍ، في نهاية عهدِ عمرَ بن الخطاب -رضي اللّه عنه- حيثُ إنّ المسلمين قبل ذلك لم يرَوا حدود الإسلام تتجاوز الجزيرةَ العربية.

[1] أخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم.

وإذا بحثنا في دعوة سيّدنا موسى -عليه السّلام- فرعونَ لدين الله تعالى، نجدُ أنّها انطلقت مِن **عامِلَين أساسيّين:**

1- **إقامةِ الصّلاة**: لقد كان موسى -عليه السّلام- على دِرايةٍ تامّة أنّ فرعونَ طاغيةُ زمانه، ادّعى الألوهيّة، فأوحى الله تعالى إلى نبيّه وأخيه هارون أنِ اتّخذا لقومكما بيوتًا في مصرَ تكونُ مساكنَ وملاجئَ تعتصمون بها، واجعلوا بيوتَكم أماكنَ تصلّون فيها عند الخوف، وأدّوا الصّلاة المفروضة في أوقاتها، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس: ٧٨).

لاحظْ -أيّها المُتدبّر- قولَ الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فلا مجالَ لأي نصرٍ إنْ لم نُقِمْ أمرَ الله تعالى في قلوبنا، ولذلك أمرَ الله تعالى سيّدنا موسى أن يبتدئَ دعوته بالصّلاة.

2- **الاستقامة**: عندما مارس فرعون التّنكيلٍ والإجرام ضدّ أنصار الدّين، دعا سيّدُنا موسى -عليه السّلام- عليه:﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ (يونس: ٨٨)، فاستجاب الله جلّ في علاه لنبيّه ولأخيه، وأمرَهما بالاستقامة على دين الله تعالى، وبالتّوحيد والطّاعة: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(يونس: ٩٨).

فهناك قوةٌ تحقّقُ النّصرَ قبل قوّةِ السّلاح، إنّها قوّةُ الإيمان، وصلابةُ العقيدة.

❖ شروطُ النّصر:

استنبطَ العلماء **سبعَ** صفاتٍ إذا اجتمعتْ بالمؤمنين ظفروا بنصرِ الله، وهذه الصّفات موجودةٌ في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(الأنفال: ٤٥-٤٧).

- أولًا: الثّباتُ:

وهذا مِن البديهيّ؛ فلا نصرَ لجبانٍ ضعيف، ولا فوزَ لمهزوزٍ، بل يجب الصّمودُ وعدمُ الانهزام أمام العدوّ، فهل نحن كذلك اليوم؟ وكثيرٌ منّا يقول: اللّهم لا تبتلينا بالقتال، ففي الرّخاء الكلُّ مُتساوٍ، لكنْ إذا حلَّ الابتلاء فأيَّ النّاس تكونُ؟

ولْتعلمْ -أخي المسلم- أنّ **الثبات** يتأتّى من الإيمان واليقين باللّه وموعودِه.

يقول عزّ وجلّ على لسان أوليائه الذين يقاتلون الكفرة: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ (التّوبة: ٥٢)

فاللّه تعالى يقول لنبيّهﷺ وللمؤمنين أنْ يسألوا الكفّار: هل تتوقّعون لنا إلّا شهادةً -والشهيدُ حيٌّ لا ميّتٌ- أو ظفرًا بكم ونصرًا عليكم؟ ونحن على يقين من أنْ يصيبَكم الله بعقوبةٍ مِن عنده عاجلة تهلكُكم، أو بأيدينا فنقتلَكم.

وإنّ إخوتَنا في فلسطين سطّروا ملاحمَ في الصّمود والثّبات، والأحداث والصّور كثيرةٌ؛ فرأينا مَن بُتِرتْ قدماه وبقيَ مُبتسمًا، يقول: **"فضلٌ من الله.. فضلٌ من الله سبقتْني قدمايَ إلى الجنة"**. ومنهم مَن يقول -بعد أنْ تُوفّيَ له اثنان وعشرون فردًا من عائلته-:**"إنّنا نرنو إلى السّماء بعيوننا التي تدمعُ رِضًى وشوقًا إلى الله تعالى"**. ورأينا الأمَّ الثكلى التي تودّعُ أبناءَها وهي تتلو القرآن، وتقرأُ قولَ الحقِّ سبحانه وتعالى:﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(آل عِمران: ١٤٢).

فالثّباتُ لا يكون في أرضِ المعركة فحسب، بل إنّما يكون في القلوب؛ برسوخِ الإيمان والرّضى في الشّدّة، فمَن عرف الله في السّرّاء، عرَفَه الله في الضراء.

- ثانيًا: ذِكرُ اللّه تعالى كثيرًا:

لا بُدّ للإنسانُ أنْ يجعلَ ذكرَ اللّه جلّ جلاله في قلبه وعلى لسانه دائمًا، ولا سِيّما عند الصّدمة الأولى، لكنّ ذِكره سبحانه وتعالى ليس بالشّيء المُتاح لكلّ النّاس، لأنّ المنافقين يعجزون عن الاستمرار أوِ الإكثار من ذكر اللّه، يقول اللّه سبحانه وتعالى:﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلا﴾(النّساء: ١٤٢).

وإنّ مَن يجعلْ ذكر اللّه تعالى دَيدَنَه سيحصدُ مِن الأجر والخير العظيم في الدّنيا والآخرة، فهو يربطك بالنّاصر القويّ الذي لا يُقهَر، فمَن كان اللّه معه فمَن عليه؟

وعندما مات إبراهيم بن رسول اللّه محمّدٍﷺ، وكان الابنَ الأخيرَ الذي يموت، حملهﷺ بين يديه وقال:"إنّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ"[2].

- ثالثًا: طاعةُ اللّه تعالى رسولَه ﷺ:

إنّ طاعةَ اللّه تعالى ورسولَه الكريمﷺ أمرٌ واجبٌ، وبابٌ من أبواب النّصر، يقول عزّ وجلّ:﴿يا أيّها الذين آمَنُوا أطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ (النّساء: ٥٩).

ناهيكَ عنْ أنّ النّصرَ لا يتنزّل على عاصٍ ولا على فاجرٍ، لأنّه لا يستحقّه، فإذا لم ننتصرْ في معاركِنا الشّخصية، لا يمكن أنْ ننتصرَ في أيّ معركةٍ كبرى، فلا تكنْ عيونك تائهةً عن الطّريق السّليم، بلِ اعملْ على تغيير ذاتك للأفضل، فصلاحُ الأمّة يبدأ بصلاح الفرد، فابدأ بالامتثال لأوامر اللّه تعالى واجتناب نواهيه، وسرْ وفق ما يريده اللّه تعالى منك، لا وَفق مزاجك وأهوائك، لأنّك إذا لم تُباشرْ بتغيير نفسك، لن يغيّرَ اللّه حالنا إلى الأفضل، وهنا تكمنُ الطّاعة الحقّة للّه ورسوله،

يقول اللّه عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرّعد: ١١).

---

[2] أخرجه البخاري في صحيحه.

ولنا في طاعة الصّحابة لرسول اللهﷺ في غزوة بدرٍ دروسٌ وعِبَرٌ؛ فمنهم من أطاعه بقوّةٍ وعزيمة، ومنهم مَن تردّد، لكنْ ما أريدُ إيصالَه هو أنّ المتردّدينَ عندما رأوا أنّ المسلمين قد همّوا وأخذوا قرارهم، تخلّوا مباشرةً عن تردّدِهم، ووضعوا أنفسهم تحت طاعة رسول الله ﷺ، فدخلوا المعركةَ دون أن يكونَ فيهم مُخذِّلٌ واحدٌ، وقاتلوا بقلبِ رجلٍ واحدٍ، لذلك كان الله عزّ وجلّ معهم، ونصرهم نصرًا مُؤزّرًا، وقلَبَ الموازينَ الدّنيوية؛ فقد كان عددهم ما يقارب ثلاثَ مئةِ رجلٍ، بلا خيلٍ أو عتادٍ يواجهون ما يقاربُ ألفَ رجلٍ بكاملِ عُدتهم وجاهزّيتِهم.

- **رابعًا: التّوافُقُ:**

إنّ **التنازعَ** بين المسلمين يؤدّي إلى الفشل لا محالة -كما أخبرنا الله جلّ جلاله- ففي معركة أحُد؛ حين اختلف الصّحابة -رضوان الله عليهم- ولم يطيعوا أمر رسول اللهﷺ بالبقاء على سَفْحِ جبل أحد، وهذا العصيان لم يكن بمعنى العصيان المُتعمَّد، بل هو خطأٌ في تقدير الأمور ووضعِها في نصابها، لأنّهم ظنّوا أنّ المعركةَ انتهت، ومع ذلك كان ذلك الاختلافُ غيرُ المقصود سببَ الهزيمة، فما بالُك بعصيانٍ مع إصرارٍ وتعمّد.

يقول الله عزّ وجلّ:﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران: ١٥٢).

فعندما سمعها الصّحابة -رضوان الله عنهم- قالوا: **"لم نكنْ نعلمْ أنّ فينا مَن يريد الدّنيا، إلّا بعد نزول هذه الآية".**

وعندما تعرّض المسلمون للهزيمة، تساءلوا: كيف نخسر المعركة وفينا رسول الله ﷺ ونحن مسلمون؟ فردّ عليهمُ الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم، ووضّح لهم أنّ عدمَ النّصر سببُه مخالفتُكم أمر رسول الله ﷺ وإقبالُكم على جمع الغنائم، وفي المقابل فقد نصرتكم في غزوة بدرٍ لأنّكم أخذتُم بأسباب النّصر، يقول الحقُّ جلّ وعلا:﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (65) وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (66) وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ...﴾(آل عِمران: ٥٦-٧٦).

وفي هذا درسٌ مهمٌّ من الله الحكيم للأمّة جمعاء، درسٌ في استجلاب النّصر أو الوقوع في الهزيمة.

وعندما واجه المسلمون التّتارَ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: **"حارِبوهم، وجاهِدوهم وأنتم منصورون، فقالوا: إنْ شاء الله تعالى، فقال: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا"**.والمقصود: إذا استُوفِيتْ أسبابُ النّصر، فنصرُ الله عزّ وجلّ قادمٌ لا محالة، ونحن كبشرٍ لا نعرف متى، وكيف، ولذلك ليس من الأدب أنْ تستبطِئَ نصرَ الله.

- **خامسًا: الصّبرُ**

يقول الله عزّ وجلّ:﴿**يا أيّها الذين آمنوا اصْبِرُوا وصابرُوا ورابطُوا واتّقوا الله لعلّكم تُفلحون**﴾ (آل عمران: 200).

فالصّبر وحدَه معركةٌ لا ينتصرُ فيها إلّا منِ استمرّ فيها حتّى النّهاية، وإنّنا في مثل هذه الظّروف التي يمرّ بها أهلُنا في غزّة، مِن خُذلانٍ إسلاميٍّ وعربيٍّ وعالميٍّ، وانعدامٍ للمؤشرات التي تبشّر ببارقةِ أملٍ، والفوارقِ العسكرية والعددية والقِوى الدّاعمة، تجعلُ اليأس والقنوط يسيطران على أنفسنا، فلا تقنطْ، فلعلّ الفرجَ قريبٌ، لكنّه محجوبٌ عنّا وقتُه بأمرِ الله تعالى وحدَه، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: **"ضَحِكَ رَبُّنا مِنْ قُنوطِ عِبادِه وقُرب غِيَرِه"**[3]،والْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى يَضْحَكُ مِنْ يأس عبده مِنَ وقوع الْخَيْرِ بِأَدْنَى شَرٍّ وَقَعَ عَلَيْهِ، مَعَ قُرْبِ تَغْيِيرِهِ تَعَالَى الْحَالَ مِنْ شَرٍّ إِلَى خَيْرٍ وَمِنْ مَرَضٍ إِلَى عَافِيَةٍ وَمِنْ بَلَاءٍ وَمِحْنَةٍ إِلَى سُرُورٍ وَفَرْحَةٍ.

والإنسانُ مُطالَبٌ، بل مَأمورٌ بالصّبر، ومهما كانت مرارتُه لا يجوز للمسلم التخلّي عنه، ومهما طال الطّريق لا شيءَ يُسوّل لك الجزع، ولا يَظُنَّنَّ ظانٌّ أنّ الصّبر يُختَبرُ بالمواقف السّهلة، بل تنكشف حقيقته عند المصائب الشِّداد، حتّى التّائبُ الذي قرّر الإقلاع عن معصيته والصّبرَ على فراقها لن يكونَ له ذلك بلا " **عَصْرَةٍ** " كما يقول ابنُ القيّم -رحمه الله- فطريقُ الاستقامة لا يكون للضّعفاء المُترهّلين، ولا يقولَنَّ قائلٌ لم يثبّت على صبره في الصّدمات والامتحانات القوية أنّه قد صبر. فلا بدّ من الصّبر لكل إنسانٍ، سواءٌ في ابتلاءٍ، أو في توبةٍ، أو حتّى في طريق الحياة اليومية، فإيّاك أنْ تسلكَنْ طريقَ الصّبر في أوقات الرّخاء والانشراح، وتعودَ لِما كنتَ عليه إنْ نزلت بك نازلةٌ، أو إنْ اجتاحتْك أشواقُك وأهواؤُك.

ومن دون الاستعانة بالله تعالى لا يمكنك الوصولُ لتلك المرحلة من الصّبر، لأنّه -سبحانه وتعالى- هو مَن يُثبّت القلوب، ويصبّرُها، ويربطُ عليها، يقول عزّ وجلّ:﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ**

[3] أخرجه ابن ماجه في صحيحه، وحسّنه الألباني.

قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القَصص: ١٠).

وإنّنا لَنفخَرُ بإخواننا الفلسطينيين أولئك الذين علّمونا دروسًا في الصّبر، هذا لأنّهم استشعروا معيّة الله تعالى معهم، وتعاملوا مع مقام الله تعالى بصفات المُحسنين، فالإحسانُ -كما نعلمُ- أعلى مراتب الإيمان، وهو أنْ تعبدَ الله كأنّكَ تراه، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنّه يراكَ.

هؤلاء الصّابرون يتلذّذون بالصّبر والاحتساب، إنّهم راضون بابتلاء الله العظيم لهم، وصابرون دون جزعٍ، وهذا كلُّه لا يتحقّق لولا الإيمان الخالص بربّ العالمين، فاللّهم ثبّتْهم على صبرهم، وارزُقْنا صبرًا جميلًا لا نغادرُه ما حيينا.

- سادسًا: التّواضعُ والإخلاص:

قال الله عزّ وجلّ:**﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾** (الأنفال: ٤٧).

ففي هذه الآية نهيٌ واضحٌ مِن الله تعالى عن **صفتينِ سيّئتين** تجعلان النّصرَ يتأخر:

1- **البَطَرُ:** هو الكِبْرُ والتّكبُّر، والتّكبّر غَمْطُ الحقّ، إذْ يجب على المؤمنين أنْ يتّصفوا **بالتّواضُع**.

وإنّ **مظاهرَ الكِبر** متعدّدةٌ -للأسف- في جوانبِ حياتنا كافّة:

عدمُ إتقان الصّلاة:كان النّبيّ ﷺ يصفّ الصّحابة -رضوان الله عليهم- للصّلاة، ويضعُ الكتف على الكتف، والقدمَ ملاصقةً للقدم، سواءٌ الرجالُ أوِ النساء، وكان يقول ﷺ لهم:**"أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟"**[4]،وقال ﷺ أيضًا:**"لَتُسَوُّنَّ لصفوفكم في صلاتكم، أو ليخالِفَنَّ الله بين قلوبكم"**[5]،فكثيرًا ما نرى -مع الأسف- بعضَ المصلّين يصطفّون منفرِدين خارج الصّفوف، ويتكبّرون وينفرون ويتضايقون إنْ لامَسْهم كتفُ أو قدمُ أحدٍ، فإنْ كانوا لا يعرفون كيفيّة الاصطفاف في الصّلاة، فكيف سيعرفون الاصطفافَ في المعارك؟

---

[4] أخرجه مسلم في صحيحه.

[5] أخرجه أحمد في مسنده، وصحّحه الألباني.

وكان النّبيّ ﷺ يقول لهم عندما كان يصفّهم: **"أقيموا الصّفوف فإنّما تصفُّون بصفوف الملائكة، وحاذوا بين المناكب، وسدّوا الخللَ، ولينوا في أيدي إخوانكم، ولا تذروا فُرُجاتٍ للشّيطان، ومن وصلَ صفًّا وصلَه الله، ومن قطعَ صفًّا قطعَه الله"**[6]، وهذا أمرٌ بإلانة المَنكب لأجل الدّاخل في الصّف، أو: لينوا بيد مَن يجرّكم في الصّف، لكنِ الذي يحدث -في كثيرٍ مِن الأحيان- أنّنا نتخاصم ونتنازع في مثل هذه المواقف.

2- **الرّياء:** وهو التّظاهر بخلاف ما عليه الباطن، فالبعض يخرُج للقتال مُباهاةً أمام النّاس، ولِيُقالَ عنه أقوالًا مُزخرَفةً، ولِيُحسِّنَ سمعته، أمّا المؤمن فإنّه رحيمٌ بالمؤمنين، شديدٌ على الكافرين، يخرج من بيته قاصدًا الله تعالى.

بنى الإسلامُ مُجتمَعَ المسلمين على أساسٍ مَتينٍ منَ الأُخوّةِ والتّآزرِ فيما بينَهم، ولذلك فإنّ التواضُع والإخلاص يجب أن يكونا في شتّى جوانب الحياة، قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠).

وسنمرّ على عدّة أحاديث للنّبيّ ﷺ حول ذلك، كي نتعرّفَ على المواضع التي تجلبُ نصرَ الله تعالى أو تحجبُه:

- يقول النّبيّ ﷺ: **"المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ"**[7].

يخبر النبي -صلّى الله عليه وسلّم- في هذاالحديثِ بما يَنْبغي أنْ يكونَ عليه المُسلِمُ تُجاهَ أخيهِ المسلمِ، فيُبيِّنُ أنَّ المسلِمَ -سواءٌ كان حرًّا أم عبْدًا، بالغًا أم غيرَ بالِغٍ- أخُو المسلِمِ في الإسلامِ، لا يَظلِمُه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه حرَّمَ قَليلَ الظُّلمِ وكَثيرَه، وفي الوقتِ نفْسِه لا يَترُكُه إلى الظُّلمِ دونَ أنْ يُعينَه، ولا يَترُكُه مع مَن يُؤذِيه دونَ أنْ يَحمِيَه.

ويُخبِرُ -صلى الله عليه وسلّم- أنَّ مَن سَعَى في قَضاءِ حاجةٍ لأخيه المسلمِ، أعانَهُ اللهُ تعالَى وسَهَّل عليه قَضاءَ حاجتِه. ومَن ساعَدَ مُسلِمًا في كُربةٍ نزَلَت به مِن كُرَبِ الدُّنيا، أي: من وقعَ في غمٍّ أثّر في نفْسِه، أو في مُصيبَةٍ مِن مَصائبِ الدُّنيا حتَّى يَزولَ غَمُّه وينكشفَ بلاؤُه؛ أزالَ اللهُ عنه مُصيبةً وهَوْلًا مِن أهْوالِ يومِ القيامةِ، ومَن اطَّلَع مِن أخِيه على عَوْرَةٍ أو زَلَّةٍ، فسَتَره ولم يَفْضَحْه، سَتَره اللهُ يومَ القيامةِ.

ولا يَعني هذا أنْ يَسكُتَ المسلم عن مَعصيةِ أخيه إنْ رآهُ مُتلبِّسًا بها، بلْ يَجِبُ عليه نُصْحُه والإنكارُ عليه بما شُرِعَ مِن وَسائلِ الإنكارِ حتَّى يَنتهِيَ عن مَعصيتِه، فهذا مِن النَّصيحةِ الواجبةِ.

---

[6] أخرجه الألباني، وقال: حديثٌ صحيح.

[7] أخرجه البخاري في صحيحه.

- ويقول النبيﷺ:"لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"[8].

يُبيِّنُ النبيُّﷺفي هذا الحديثِ الجليلِ -الذي قِيلَ فيه: إنَّه رُبُعُ الإسلامِ، ومِن أحاديثَ أربعةٍ تَتفرَّعَ عنها جِماعُ آدابِ الخيرِ أنَّه لا يَتحقَّقُ الإيمانُ الكامِلُ لأحدٍ مِن المُسلِمينَ -والنفيُ هنا لا يُقصَدُ به نفْيَ أصلِ الإيمانِ، وإنَّما نفْيُ الكَمالِ- حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِه مِن الطَّاعاتِ وأنواعِ الخَيراتِ في الدِّينِ والدُّنيا، ويَكرَهَ له ما يَكرَهُ لنفْسِه، فإنْ رَأى في أخيه المسلِمِ نَقْصًا في دِينِه، اجتهَدَ في إصلاحِه، وإنْ رأى فيه خيرًا سدَّدَه وأعانَه على الثباتِ عليه والزِّيادةِ منه؛ فلا يكونُ المؤمنُ مُؤمنًا حقًّا حتَّى يَرْضَى للنَّاسِ ما يَرضاهُ لنفْسِه، وهذا إنَّما يَأتي مِن كَمالِ سَلامةِ الصَّدرِ مِن الغِلِّ والغِشِّ والحسَدِ؛ فالحسَدَ يَقتضي أنْ يَكرَهَ الحاسدُ أن يَفُوقَه أحدٌ في الخَيرِ، أو يُساوِيَه فيه؛ لأنَّه يُحِبُّ أنْ يَمتازَ على النَّاسِ بفَضائِله، ويَنفرِدَ بها عنْهم، والإيمانُ يَقْتضي خِلافَ ذلك، وهو أنْ يَشرَكَه المؤمنون كلُّهم فيما أعطاهُ اللهُ مِن الخَيرِ.

- ويقول النبيﷺ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَخُونُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْتَقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ"[9].

إنّ أُخوّة الإيمان، أقوى وأوثقُ رابطة، ولا يجوز للمسلم أنْ يَغدُرَ بالمسلم إذا ائتمنه على شيء، أو على مال، أو على سرٍّ، أو على غير ذلك، ولا يخنه، ولا يُحدِّثه بكذب، والكذبُ حرام، وكلّما كانت آثاره أسوأ كان أشدَّ إثمًا، كما علَّمَنا النَّبيّﷺ أنْ نُحسِنَ إلى بَعضِنا البعضِ، ونهانَا عنِ انتهاكِ خُصوصيَّاتِ المُسلِمين مِن المالِ والعِرْضِ، كما حرَّمَ القتْلَ بغيرِ الحقِّ.

- ويقول النبيﷺ:"ما من امرئ يخذل امرأً مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته وما من أحد ينصر مسلمًا في موطنٍ يُنتقَصُ فيه من عرضِه ويُنتَهَكُ فيه من حرمتِه إلّا نصَرَه اللهُ في موطنٍ يحبُّ فيه نصرتَه"[10]،فمَن يخذلْ أخاه المسلم في موقفٍ تمّ فيه الاعتداء على عرضه وحرمته فسيخذله الله، ولن ينصره، والعكس صحيحٌ.

---

[8] أخرجه البخاري في صحيحه.

[9] أخرجه الترمذي في سننه، وصحّحه الألباني.

[10] أخرجه أحمد في مسنده، وحسّنه الألباني.

- ويقول ﷺ:"انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا"، قالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: "تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ"[11]،فيجب عليك أنْ تنصرَ أخاك المسلم في كل أحواله؛ تساندُه إنْ ظُلِم، وتمنعُه وتردُّه عن ظلمه إذا ظَلَم.

- ويقول النبيﷺ: "وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ"[12]،والبوايقُ والبوائقُ: جمعُ بائقةٍ، وهي الدَّاهيةُ والبَلِيَّةُ، والفَتْكُ والشُّرُور، والظُّلمُ والجَورُ والتَّعدِّي، والمُرادُ: أنَّ المُؤمِنَ لا يَبلُغُ الإيمانَ الكاملَ حتَّى يَمنَعَ أذاهُ وضَرَرَهُ عن جارِه.

- وقال النبي ﷺ في حجَة الوداعيومَ عرفة:"إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا"[13].

- ويقول النبيﷺ: "بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ"[14]، فلا تستسهِلنّ بالعقاب جرّاء تحقيرك أخيك المسلم.

- ويقول النبي ﷺ: "لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ"[15]،فلا يتمنَّ مسلمٌ زوال نعمةِ مسلمٍ، ولا يزِدْ مسلمٌ على مسلمٍ في السّلعة وهو لا يريد شراءَها، فيرفعُ ثمنها عليه إمَّا بُغضًا له، وإما محبَّةً لصاحب السّلعة حتى يزدادَ الثمنُ له، ولا يتعاطَ المسلمون أسبابَ البغضاء من غيبةٍ ونميمةٍ، وغيرهما، ولا يتقاطعوا ويهجروا بعضهم البعض.

---

[11] أخرجه البخاري في صحيحه.

[12] أخرجه البخاري في صحيحه.

[13] أخرجه مسلم في صحيحه.

[14] أخرجه مسلم في صحيحه.

[15] أخرجه مسلم في صحيحه.

- ويقول النبي ﷺ: "لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ، وجارُه جَائِعٌ"[16]،فنحن مسؤولون عن بعضنا، فلا ينبغي أن يشبعَ أحدنا وجاره جائعٌ، وهذا فرضُ كفايةٍ.

- ويقول النبي ﷺ: "كَمْ مِنْ جَارٍ متعلقٍ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ، يَا رَبِّ! هَذَا أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي، فَمَنَعَ مَعْرُوفَهُ!"[17]، فيومَ القيامة يتعلّق الجار بجاره، ويقول: **"يا ربِّ! سلْ هذا؛ لماذا ردّني لمّا طرقتُ بابه؟"**

كما أنّ إغلاقَك بابَك بوجه أخيك المسلم ليس من النّخوة ولا من الشهامة ولا من الرجولة في شيء.

- **سابعًا: عدم الصدّ عن سبيل الله:**

لا ينبغي للإنسان العاقل أن يبذلَ أيَّ شيءٍ بهدف الصدّ عن سبيل الله، ومنعِ النّاس مِن دخول الإسلام، ومن ممارسة شعائرهم، ولا يحُلُّ للإنسان أن يخوضَ في حملات تشويهِ الإسلام ليجعلَ ضعيفي أصحاب المِلل الأخرى ينفرُون منه، لذلك فإنّ من أسباب الظّفَر بنصر الله تعالى الدّفاع عن الإسلام، وحمايته، وتسلُّم راية القيادة في إبراز عظَمته، وبذل الأرواح والأموال في سبيل الدّعوة لدين الله الحنيف.

ويجب التّنبيه على أنّ نصرةَ المسلم إخوانَه المسلمين لا يكون فقط مع من تربطه معهم صلةٌ في القرابة أو الدّم أو النّسب أو الجنسية، فسلمانُ الفارسي -رضي الله عنه- أعجميٌّ، لكنّ رابطةَ الدّين جعلتْه أخًا لكلِّ مسلم.

فرابطةُ العقيدة، هي الرّابطة الأسمى، لا الروابطُ القَبَليّة أو العِرقية، يقول الله عزّ وجلّ:﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢).

فلتعلمْ -أخي المسلم- أنّه لو توفّرتْ كلُّ هذه الشّروط لتحقّقَ النّصرُ العظيم على أعتى الأعداء، ولتعلمْ -أيضًا- أنّ قوانينَ السّماء تختلف عن قوانين الأرض وعنِ المنطق البشريّ الضعيف، وأنّ الحربَ جولاتٌ، والجولةُ التي يكون فيها نصيبٌ لعدوِّ الله عزّ وجلّ ليست نصرًا لهم، لأنّ إنجازَهم مُضمَحِلٌّ وزائلٌ بإذن القوي العزيز، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١).

---

[16] أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصحّحه الألباني.

[17] أخرجه البخاري في صحيح الأدب المفرد، وحسّنه الألباني لغيره.

كما أنّ الله سبحانه وتعالى يمُدُّ للظالمين مدًّا، ويُطلِقُ أيديهم، لأنّه يريدُ -سبحانه وتعالى- أنْ تزيدَ أوزارُهم كي تزيدَ عقوبتُهم وتشتدَّ، يقول الحقّ جلّ جلاله:﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِى لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِى لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾(آل عِمران: ٨٧١).

❖ يجب على المؤمن أن يَحيَا وَفْقَ القواعد الآتية:

- **القاعدةُ الأولى:**

على المؤمن أنْ يُدرِكَ أنّه يعيش في دنيا حقيرةٍ زائلة، فهي لا تساوي عند الله تعالى جناحَ بعوضةٍ، كما يقول سيّدنا محمّدٌﷺ:"...وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا"[18].

فضلًا عن أنّ الله -جلّ في علاه- نهانا عن الاغترار بالدنيا، وكثيرًا ما يُذكّرنا في كتابه الحكيم بزوالها: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ (آل عِمران: ٥٨١، الحديد: ٠٢).

قال رَسُولُ اللّه ِﷺ: "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللّه ِيَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللّه ِيَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ"[19].

فمهما عَظُمَ نعيمُ الدّنيا فهو لا شيءَ عند أدنى عذابٍ في النّار، وإنّ أعظمَ بؤسٍ في الدّنيا لا يساوي شيئًا عند أدنى نعيمٍ في الجنة، حيث يُؤتَى بأشدِّ النّاس بؤسًا؛ مَن خسر عضوًا مِن أعضاءِ جسده، أو مَن خسر سمْعه أو بصرَه أو قوّته،

---

[18] أخرجه ابن ماجه في سننه، وصحّحه الألباني.

[19] أخرجه مسلم في صحيحه.

أو مَن فقد أهله... فيُغمَس غمسةً واحدةً في الجنة، فيُقال له: هل ذُقتَ بؤسًا قطّ؟ فيقول: واللّه لم يمُرَّ بي بؤسٌ قطّ. فإذا كانت الغمسةُ السّريعةُ تُنسِي آلامَ عمرٍ بأكملِه في الدّنيا، فما بالُك بمَن يدخل بيته في الجنة خالدًا؟

- **القاعدةُ الثّانية:**

على المؤمن أنْ يعلمَ علمَ اليقين أنّه كريمٌ على الله عزّ وجلّ، فالله جلّ جلاله وليُّ المؤمنين، وحُرمةُ المؤمن عنده أعظم من حرمة الكعبة، ولَئِنْ تُهدَم الكعبةُ حجرًا حجرًا، خيرٌ مِن أنْ يُرَاق دمُ امرئٍ مسلمٍ، فكلّ المسلمين الذين يموتون بنيران الأعداء هم أكرمُ عند ربّنا جلّ جلاله من أقرب النّاس إليهم.

- **القاعدةُ الثّالثة:**

إنّ الكافرَ حقيرٌ مَهينٌ عند الله عزّ وجلّ، فهؤلاء عليهم غضبُ اللّه تعالى، ولعنتُه، وعذابُه، فاليهود كَفَرةٌ، منذ القِدم، آثمون، ناكرون لأفضال الله تعالى عليهم، قال الله عز وجل:﴿**وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ**﴾(المائدة: ٦٤).

وقد قال اليهود -أيضًا- إنّ الله فقيرٌ إليهم -والعياذُ بالله- يحتاجُ أموالًا منهم، يقول الله عزّ وجلّ:﴿**إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ**﴾ (آل عِمران: ١٨١).

- **القاعدةُ الرّابعة:**

وهي القاعدةُ الشّاملة؛ وهي أنّ الله تعالى لم يرضَ أنْ يجعلَ الدّنيا ثوابًا لحسنات المؤمن، بل هي تكفيرٌ لسيّئاته، لذلك؛ فإنّ أيَّ خيرٍ يفعله المؤمن يجب أنْ يفعلَه لآخرته، وأيّ ظلمٍ أو ابتلاءٍ يؤلمُه يجبُ عليه أن ينتظرَ العِوض في الآخرة، فهي الدّائمة، فالدّنيا تطهيرٌ للمؤمن من خطاياه، يقول النبي ﷺ:"**مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاه**"[20].

[20] أخرجه البخاري في صحيحه.

وفي المقابل؛ لم يرضَ الله عز وجلّ أن تكونَ الدّنيا عقابًا لسيّئاتِ الكافر، بل تُعجَّلُ له حسناته، فالكافرُ الذي يعمل مشاريعَ خيريةٍ؛ كإطعامِ الفقراء، أو حُسنِ الجوار، أو غيرها من الأعمال المحمودة، فإنّ يُعطَى أجرَه على ذلك في الدّنيا، ولا يبقى له في الآخرة إلّا العذاب، يقول النبي ﷺ:**"... وأمّا الكافرُ فيطْعَم بحسناتِه في الدّنيا حتّى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنةٌ يُعطَى بها خيرًا"**[21].

إنّ دماءَ المسلمين الأبرياء لا تُراق هدرًا، بل إنّها سببُ دخولهم جنانَ الخلد، فلا بُدّ لنا أنْ نعيشَ مع هذه العقيدة، وألّا نشُكَّ لحظةً بموعود الله تعالى لنا، وأذكرُ -في هذا المجال- إحدى النّساءِ الفلسطينيّات، والتي استُشهِدتْ -نسألُ الله تعالى أن يتقبّلَهم جميعًا- فكانت تقول: **"الآنَ تُبنَى غزةٌ جديدةٌ لي في السّماء، فهناك بيوتٌ لن تُهدَم، وهناك نلقى أحبابَنا، ولا حزنَ ولا موتٌ ولا دماءَ".**

إذن؛ نصرُ الله بيد الله وحدَه، وما على الإنسان إلّا الأخذُ بأسبابه، أمّا سُنّة الله وأحكامُه فماضيةٌ في الكون، لكنْ إنْ أراد الله تعالى النّصرَ فلا يعلمُ الإنسان كيف، ولا مِن أين، فعندما نصرَ سبحانه وتعالى نبيّه وكليمَه موسى -عليه السّلام- جعلَ سببَ نصره هو ذاتُه سببَ هزيمة فرعون وجيشه، فأُغرِقوا جميعًا، ولو تأمّلنا قصةَ موسى -عليه السّلام- وفرعون لوجدنا أنّ نهايةَ فرعون ابتدأتْ مع ولادةِ موسى، حيثُ سِيقتِ الأحداث ورُتّبتْ على نحوٍ يُختَتم بنصر الحقّ وهزيمة الطّغاة؛ مِن ولادة موسى -عليه السّلام- ورميه في البحر، وتربيته في بلاط فرعون... انتهاءً بغرقه.

ومِن الضّرورة بمكانٍ أن نَعِي أنّ ازديادَ الإيمان يقود إلى عِظَم النّصر، والعكس صحيح، وإنّها مِن حكمة الله عزّ وجلّ أنْ نذوقَ المرار، فلو كان الإنسان منصورًا على الدّوام لَمَا لجأَ وتضرّع لربّه، ولَظَنَّ أنّ كل الإنجازات والسّعة والأموال مِن تحصيل الإنسان، فالله لا يريدنا أن ننسى أنّنا فقراءُ إليه، لأنّ هذه هي الحقيقة، ومِن رحمةِ الرّحمن أنّه يُعيدُنا إليه بابتلاءاته، ويربطنا ويُعلّقنا به، ومِن فضلِ الكريم أنّه يجعلُ لنا كل ما نمرُّ به من مصائب وصعاب طريقًا لدخول جنّاته إنْ صبرنا واحتسبنا.

ولذلك؛ **فإنّ السعيد الذي يستعدُّ دون أن تأتيَه هذه المرارة**، والذي لا يغترُّ بما أنعم الله تعالى عليه مِن أمنٍ وأمانٍ، وصحةٍ وعافيةٍ، وسِعةٍ في الأموال، ورغدٍ في العيش، فلا شيء يدوم، لا حزنٌ ولا سرورٌ، يقول الحق تبارك وتعالى:﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ**﴾ (آل عِمران: ١٤٠).

---

[21] أخرجه أحمد في مسنده، وصحّحه الألباني.

فقد يتأخر نصر الله عز وجل للأمة الإسلامية لأنها قد لا تستحقُّه، لأنّ أفرادها قد أسرفوا وتفرّقوا واستفرغوا كل ما بوسعهم في غير ما يُرضي الله جلّ جلاله، فأنت -كفردٍ- اسألْ نفسك: **هل استفرغتَ كل ما بوسعك؟ هل فعلتَ كل ما تستطيع لنفسك ولأبنائك؟ هل أنشأتَهم على دين الله عز وجل؟ هل أخضعت حياتك من ألفها إلى يائها لشرع الله؟**

قال الشيخ ابن باز -رحمه الله-: إنّ للهزيمة أسبابًا، وللنّصر أسبابًا أخرى، وأسبابُ النّصر لا تكون إلّا باستكمالِ الإيمان.

فاحملْ -أخي المسلم- **إيمانَك** معكَ في بيتك، في عملِك، في مسجدِك، وفي كلِّ أماكنِك وأزمانِك، اجعلْه منهجَ حياتِك، واحرصْ على النّجاح في امتحاناتِ الله تعالى لك، واعلمْ أنّ هذه الحياةَ الدّنيا إنّما هي دارُ امتحاناتٍ وابتلاءاتٍ مِن أوّلِها إلى آخرِها، ولا تجعلْ هذه الفكرةَ تغيبُ عن ذهنك، نَعَم -أخي المؤمن- إنّك مُبتلًى في كلِّ ظروف حياتِك، ولا تظنَّنَّ أنّ ابتلاءات الله تعالى في الشّدائد والكُربات فقط، بل إنّها في كلّ مجال. ونذكر من هذه الابتلاءات:

- ابتلاءاتُ حرمانٍ وصبرٍ؛ يُختَبَرُ فيها صمودك.
- وابتلاءاتُ عطاءٍ وشكرٍ؛ يُنظَر فيها إلى أفعالك عندما تُفتَح لك أبواب الدنيا.
- وابتلاءاتُ ثوابٍ وأجرٍ؛ يُراد منها إعطاؤك أجرٌ عظيمٌ.
- وابتلاءاتُ توجيهٍ؛ يتمُّ من خلالها توجيهك نحو طريقٍ مُغايرٍ.
- وابتلاءات تأديبٍ؛ يتمُّ فيها وضعك وتذكيرك بحقيقتك.
- وابتلاءات تمحيصٍ؛ فيتِمُّ إخراج أفضل ما فيك.
- وابتلاءات تقويم؛ حيث يتمُّ من خلالها إصلاحُ بعضِ أمورِك العوجاء.
- وهناك ابتلاءاتٌ للإتيان بك إلى دائرةِ العبوديّة الأشمل، حيث يبتليك الله تعالى لِيَشحَذَ همّتك وتّقبلَ بمزيدٍ من العبادات والطاعات عليه سبحانه وتعالى.

وأختمُ بقول الله عزّ وجلّ عندما نادى المؤمنين:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾(الصّف: ١٤).

وقال عزّ وجلّ -كما أسلفتُ- في بداية كلامي: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾(محمّد: ٧).

فهذا هو الشّرط الذي يختزلُ الدّرس؛ إذا نصرتَ الله نصرَك الله تعالى، ومَن يتأمّلِ القرآن يجدْ أنّ الله تعالى كثيرًا ما يستحِثُّ إيمانك، ويدعوك لِتكون من أنصاره جل جلاله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾(الصّف: ١٤).

أسألُ الله أنْ يجعلَني وإياكم من أنصار الله تعالى، ومِنَ الذين يعملون بدينه عزّ وجلّ، وأسألُ الله أنْ يُعِزَّ الإسلام والمسلمين، وأنْ يُذِلَّ الشّرك والمشركين، وأنْ ينصرَ دينه، وكتابَه، وسُنّةَ نبيه ﷺوعبادَه الصّالحين.

والحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، سيّدِنا مُحمّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها